كَمن لا ذنب له

تقدم الشاب في تردد نحو الضوء.. أخذ يجر ساقيه خلفه في بطء.. واقترب واقترب.. وقف قليلاً يتأمل المشهد الذي أمامه..

ملأ عينيه بما يراه وتسمّر في مكانه لبضع ثوان.. بضع ثوان كافية لأن أقص عليكم أحداثاً أخرى كانت تحدث في ذات اللحظة في مكان آخر بعيد عن هذه الأحداث التي بدأت بها القصة..

تقدم شيخٌ عجوز ذو لحية بيضاء في قوة لا تتناسب مع سنه وسط الصحراء.. بات أشبه بالصقور من فوقه.. بنقطة سوداء وسط البياض الناصع.

أمسك الشيخ براحلته وبدا كمن يعرف طريقه جيداً وسط دروب البادية المتشابهة، وواصل طريقه إلى أن زأرت بعيره عطشاً وأنّت تعباً، فما كان من الشيخ العجوز إلا أن أوقف راحلته بجانب شجرة يتيمة لونها يميل إلى لون الصحراء الصفراء. جلس العجوز في ظل الشجرة وأخلد إلى نوم عميق.

تراجع الشاب فجأة عن الضوء ونظر حوله في توتر وارتجفت أعضاءه كالصريع. تلفت حوله مرة أخرى حتى بدا كمن يتأكد أنه لا يراه أحد.. بعدها استدار في بطء وأعطى ظهره للضوء، ثم نظر كمن يبحث عن شيءٍ آخر. وفجأة برزت من وسط الظلام... رآها ما أروعها! تأكد مرة أخرى أنه لا يراه أحد.

نظر خلفه فرأى الضوء كما هو، اشتعل صراع في داخله، نظر خلفه مرة أخرى إلى الضوء ثم نظر إليها، ابتسمت له... أسفرت شفتيه عن شبه ابتسامة باهتة.. تحولت ابتسامتها إلى ضحكة ثم إلى قهقهة ماجنة مجلجلة.. تلفت حوله مرة أخرى. ثم نظر خلفه إلى الضوء بأسى ثم نظر إليها. فرآها تمد ذراعيها إليه.

ازدرد ريقه في صعوبة، وبات واضحاً أنه في صراع رهيب، ثم اتخذ قراره.. تقدم نحوها.. ابتسمت في ثقة زادت من ثقته وكلما تقدم نحوها كلما أوغل في الظلام. عكس الضوء من خلفه ظل جسده على جسدها. وكلما تقدم كلما صغر ظل جسده عليها...

وأخذ يتقدم نحوها وهي تبتسم وأخذ الظل يتقلص ويتقلص وفجأة.. فتح الشيخ عينيه وانتفض جسده انتفاضةً بسيطة كمن وُخز بشيءٍ دقيق. قام في تهالك ونظر إلى أعلى فرأى الشمس تكاد تتوسط كبد السماء.. ثم نظر إلى ظل الشجرة التي يستند

إليها، فرأى ظلاً قصيراً آخذاً في التقلص نحو الشجرة نفسها وأخذ الظل يتقلص.. حتى كاد أن يصبح نقطة تحت فرع الشجرة.

وأخذ ظل الشاب يتقلص ويتقلص حتى أصبح حجم الظل في حجم الشاب تماماً على جسدها.. وتلاقت الأعين وتلاقت الأجساد.. وبدا الضوء من خلفه يخفت تدريجياً.

وفي تلك اللحظة تماماً اكتشف الشيخ أن راحلته مفقودة، فقد ضلت طريقها وهو نائم.جلس الشيخ منتظراً مصيره في رضا ناظراً إلى الشمس في كبد السماء وأخذ ينتظر وينتظر حتى بدأت الشمس رحلة الغروب.

وبدأ الشيخ يشعر بالقلق، فها هي الشمس توشك على الذهاب.وسرعان ما يحل الظلام وهو وحيد دون راحلته، نظر الشيخ إلى ظل الشجرة الذي أخذ يتمدد مرة أخرى، ولكنه مع مرور الشمس أخذ يخفق تدريجياً فأطلق زفرة قوية من صدره وصرخ: «لا»..

ثم مضى وحيداً نحو هدفه وسط صحراء المغيب... أخذ الضوء من خلف الشاب يخفت تدريجياً.فقد أوغل الشاب في ظلام دامس وكلما أوغل الشاب خفت الضوء وفجأة صرخ الشاب «لا»..

تراجع الشاب خطوتين بعيداً عنها.. مدت يديها مرة أخرى له في دلال. صرخ مرة أخرى: «لا». ابتسمت، ولكنه لم يعبأ هذه المرة بها. فالتفت في ثقة ونظر إلى ذلك الضوء البعيد الخافت وركّز بصره عليه ثم خطا نحوه في اعتداد وثقة ودمعة ساخنة تملأ عينيه. في تلك اللحظة تماماً انتفض جسد العجوز. فقد رأى على مرمى البصر شيئاً أشبه براحلته، فأسرع الخُطا نحوه.. لا يسمع حوله إلا صوت لهاثه الساخن وهو يجري وسط الرمال، واقترب وشارفت الشمس على المغيب وهو يلهث تعباً وعطشاً.

أخذ الشاب يجري في ثقة وسط صوت أنفاسه الساخنة ووسط الظلام.. نحو الضوء، وأطلق لدموعه العنان.. تساقطت سيولاً غزيرة تمسح الظلام من خلفه وهو يتقدم نحو الضوء، في تلك اللحظة تماماً سمع الشيخ صوت الرعد، وتساقط الودق. تساقط سيولاً غزيرة تمسح أثر خطواته وهلاكه من خلفه وتقدم نحو الأفق، نحو راحلته في مرمى البصر.

نظر الشاب إلى مرمى بصره فوجد الضوء يقترب.. ويقترب.. وكلما اقترب الشاب من الضوء، كلما كبر ظله على جسدها من ورائه وبهت.... .

وكلما اقترب الشيخ من راحلته في مرمى البصر كلما كبر ظل الشجرة وبهت، وأخذ يكبر إلى أن التصق بجسد الشيخ الذي أخذ

يجري نحو الأفق حيث تغرب الشمس. . اقترب الشاب تماماً من الضوء رويداً. . رويداً. بدأت معالمه تتضح فها هي المئذنة تنير ما حولها في ضوء أخضر مريح، وها هي القبة تردد النداء للّقاء.

وقف الشاب أمام المسجد في خشوع وانتظر قليلاً، حتى التقط أنفاسه ثم مد يده في وجل ليفتح الباب وبعد تردد دفع الباب بيده فأطلق صريراً يدل على أنه لم يرتاده أحدٌ منذ فترة كبيرة، وفتح الباب شيئاً فشيئاً.

حامت الصقور فوق تلك البقعة من الصحراء التي يقف الشيخ فيها أمام راحلته، وأمامه مباشرة شمس المغيب ذات لون برتقالي خلاب.

وأطلقت الصقور صرخة تردد صداها في الصحراء. زفر الشيخ في ارتياح ثم قال: الحمد لله، ثم نظر أمامه إلى الشمس التي شارفت تماماً على الغروب وأخذت تدنو وتدنو.

وفي مكان آخر وصحراء أخرى، بدأت الشمس رحلتها نحو الشروق. . وفُتح الباب ودخل الشاب إلى المسجد وفي عينيه دموع الندم. . نظر في تأثر إلى المحراب، وملأ أذنيه طنينٌ هادئ مريح، تبين أنه ترتيل لكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. ثم تبين أن هناك من جلس أمام المحراب ممسكاً كتاباً يقرأ منه في خشوع.

تقدم الشاب في وجل نحو المحراب ونحو الرجل الذي يعطيه ظهره، وأخذ يقترب والعبرات لا تنقطع من عينيه. اقترب الشاب تماماً من ظهر الرجل ووقف يستمع إلى قراءته، وفجأة سكت الطنين والتفت الرجل إلى الشاب فطالعه وجه شيخ الصحراء البشوش ذي اللحية البيضاء، وهو يبتسم وقال له: اجلس يا بني فقد كنت أنتظرك منذ زمن.

جلس الشاب في حيرة وقال: هل أعرفك يا سيدي؟

ابتسم الشيخ في حكمة ثم قال: نعم يا بني. الدموع التي في عينيك هي التي تعرفني. مسح الشاب عينيه ثم قال في حيرة: ولكن.. قاطعه الشيخ مشيراً بيده ثم قال: لا وقت للكلام يا بني حي على التوبة. نظر الشاب إليه والأمل في عينيه ثم قال: أنت محق. حي على التوبة. وعندها سمع صوت الديوك المسبحة في السحَر واستعدت الآذان لسماع الأذان وسط ظلام دامس سرعان ما تزيحه شمس الشروق ويغسله الندم في عين التّائب من الذنب فهو كمن لا ذنب له....

عن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه حدث بحديثين: أحدهما عن النبي ﷺ ــ والآخر عن نفسه. قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه. وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا، ثم قال: ــ (لله أفرح بتوبة

عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني فرجع فنام نومةً ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده).

obeikandl.com